المبحث الثاني: الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه

المطلب الأول:

صفات الله وإنزال الكتب الالهية

{الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}(١)

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قولـه تعالى:**{الم}**

أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك من كونـه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك

ومما يشهد لصحة هذا الرأى: أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول ﷺ فى أغلب المواضع

وأيضا فإن هذه السور التى افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذى جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه ﷺ ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء فى هذا الموضوع

قال سيد طنطاوى فى الوسيط:

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال:**{اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ}**

(١) آل عمران: ١ - ٦.

ولفظ الجلالة:**{الله}** يقول بعض العلماء: إن أصله إله، دخلت عليه أداة التعريف "ال " وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله

قال القرطبي: قوله:**{الله}** هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها حتى قال بعضهم: إنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو سبحانه -

ولفظ " إله " قالوا: إنه من أله أى عبد، فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل: هو أله أى تحير وذلك لأن العبد إذا تفكر فى صفاته - تعالى - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله

و**{الحَيُّ}** أى: المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها

و**{القَيُّومُ}** الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، المعطى لهم ما به قوام حياتهم، وهو مبالغة فى القيام وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره

والمعنى: الله - تعالى - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة وهو الدائم القيام بتدبير شؤون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم

قال الآلوسى: ولفظ الجلالة: " الله " مبتدأ وما بعده خبر والجملة مستأنفة، أى: هو المستحق للعبودية لا غيره و**{الحَيُّ القَيُّومُ}** خبر بعد خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف أى: هو الحى القيوم وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة مرفوعا أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور، فى سورة البقرة، وآل عمران، وطه

وقال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت فى البقرة:**{اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ}**[1] وفى آل عمران:**{اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ}**[2] وفى طه:**{وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ}**[3] وبعد

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) آل عمران: ٢.
(٣) طه: ١١١.

أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال:

{نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [1]والكتاب - كما يقول الراغب - فى الأصل مصدر، ثم سمى المكتوب فيه كتاباً والكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه والكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط

والمراد بالكتاب المنزل: القرآن الكريم وفى التعبير عنه باسم الجنس إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة، فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل

وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للإشارة إلى أن نزول القرآن على النبى ﷺ كان منجما ولم يكن دفعة واحدة ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبى ﷺ على حسب الوقائع والحوادث وغيرها فى مدة تزيد على عشرين سنة

وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجما منها: تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتقوية قلبه، ومنها: التدرج فى تربية قويمة سليمة، ومنها: مسايرة الحوادث فى تجددها وتفرقها ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه، ومنها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها: الإجابة على أسئلة السائلين، وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وكشف حال الكافرين والمنافقين منها: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى -

{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً} فأنت تقرأ ما نزل على الرسول ﷺ من قرآن فى مكة وما نزل عليه فى المدينة، فترى الجميع محكم السرد دقيق السبك، رصين الأسلوب، بليغ التراكيب، فصيح الألفاظ بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف فى جودته من وقت إلى وقت " ومن موضوع إلى موضوع "

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترنا بأمرين متصلا بهما:

أما أولهما: فهو قوله:**{بِالْحَقِّ}**

(١) آل عمران: ٣.

وأما ثانيهما: فهو قولـه:{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أى: أن الله - عز وجل - الذى لا إلـه إلا هو، والذى هو الحى القيوم، هو الذى نـزل عليك يـا محمد هذا القرآن تنـزيلا ملتبسـا بـالحق، ومصـاحبا لـــه، ومقترنـا بـه، ومشـتملا عليـه، فكـل مـا فيـه مـن أوامـر، ونـواه، وقصص، وأحكام، وعقائد، وآداب، وشرائع وأخبار حق لا يحوم حولـه باطل، وصـدق لا يتطرق إليه كذب

وهو الذى جعل هذا الكتـاب المنـزل عليك موافقا ومؤيداً لمـا اشـتملت عليـه الكتـب السابقة من الدعوة إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وإلـى الوصـايا والشـرائع التـى تسعد الناس فى كل زمان ومكان وهذا يدل على أن الشـرائع الإلهيـة واحـدة فـى جوهرهـا وأصولها قال - تعالى:{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْـرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ} وقولــه:{بِالْحَقِّ} متعلـق بمحـذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب

وقولـه:{مُصَدِّقاً} حال مؤكدة من الكتاب أى نزله فى حال تصديقه الكتب

وفائدة تقييد التنزيل بهذه الحـال: حـث أهل الكتـاب علـى الإيمـان بـالمنزل، وتنبيههم على وجوبه؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما

قال الجمل: وقولـه:{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، فيـه نـوع مجـاز؛ لأن مـا بـين يديـه هـو مـا أمامه فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره واللام فى{لِّمَا} لتقوية العامل نحو قولـه - تعالى:{فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة " ثم أخبر - سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التى أنزلها فقال:{وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفرقان}

والتوراة: اسم عبرانى للكتاب الذى أنزلـه الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون شريعة لـه ولقومه

قال القرطبى مـا ملخصـه: والتوراة معناهـا: الضياء والنور مشتقة من وَرَى الزند ووَرِى لغتـان إذا خرجـت نـاره وقيـل: مـأخوذة مـن التوريـة، وهـى التعـريض بالشـىء والكتمان لغيره، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح

والجمهور علـى القول الأول لقولــه - تعـالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً

وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ} يعنى التوراة

والإنجيل: كلمة يونانية معناها: البشارة وهى اسم للكتاب الذى أنزلـه الله على عيسى

قالوا: والإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل: يقال: رحم الله ناجليه أى والديه وقال قوم: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته، ويقال للماء الذى يخرج من البئر: نجل وقيل: هو من النجل الذى هو سعة فى العين ومنه طعنة نجلاء أى واسعة وسمى الإنجيل بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبنى إسرائيل على يد عيسى عليه السلام

وهذا الكلام الذى نقلناه عن القرطبى والفخر الرازى هو قول لبعض العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف

وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهم اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين

قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه للمذهب الذى يرى أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف: " فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان:

أحدهما بالعبرية، والآخر بالسريانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أن الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث "

وقولـه:**{مِن قَبْلُ}** متعلق " بأنزل " و" هدى " حال من التوراة والإنجيل، ولم يثن لأنه مصدر ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل

أى: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذى من جملته الإيمان بالنبى ﷺ واتباعه حين يبعث، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض على طاعته

قالوا: فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو إسرائيل ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم نكن متعبدين أى مكلفين ومأمورين بشرع من قبلنا، والآن فيهما ما يفسد التوحيد وصفات البارى والبشارة بالنبى ﷺ

قال الآلوسى: وعبر فى جانب التوراة والإنجيل بقولـه: " أنزل " للإشارة إلى أنهما

لم يكن لهما سوى نزول واحد، بخلاف القرآن فإن لـه نزولين: نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ونزولا من ذلك إليه ﷺ منجما فى ثلاث وعشرين سنة على المشهور، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل "

هذا، وليست التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم هى التوراة التى أنزلها الله على موسى، فقد بين القرآن فى أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا، ومن ذلك قوله - تعالى:**{يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ}**(١)

وقوله تعالى:**{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ}**(٢)

ومن الأدلة على أن التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم ليست هى التى أنزلها الله على موسى: انقطاع سندها، واشتمالها على كثير من القصص والعبارات والمتناقضات التى تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل؛ إذ ليست هذه الأناجيل التى يقرؤها النصارى اليوم هى الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى؛ وإنما هى مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه

أما الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى والذى وصفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل

و**{الْفُرْقَانِ}** كل ما فرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقاناً

١ - والمراد به عند أكثر المفسرين: الكتب السماوية التى سبق ذكرها وهى التوراة والإنجيل والقرآن أى: أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال والخير والشر، وبذلك لا يكون لأحد عذر فى جحودها والكفر بها

وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ

(١) سورة المائدة /١٩.
(٢) سورة المائدة/١٣.

الإنزال، تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى

٢ - وقال بعضهم: المراد بالفرقان هنا: القرآن وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه، ورفعا لمكانه، ومدحا له بكونه فارقاً بين الحق والباطل، للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال الشرائع كلها

٣ - وقال بعضهم: المراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسله لهداية الناس وسعادتهم وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر

وقد ذكر صاحب الكشاف هذه الأقوال وغيرها فقال: " فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقا بين الحق والباطل "

أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه: " والمختار عندى أن المراد من هذا الفرقان: المعجزات التى قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله، افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب فالمعجزة هى: الفرقان فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذي يدل على صحتها، ويفيد بينها وبين سائر الكتب المختلفة "

والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا: جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق، الكافرين بآيات الله، فقال:**{إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام}** أى: إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسله فيما يبلغون عنه، لهم عذاب شديد

منه - سبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم**{والله عَزِيزٌ}** أى منيع الجانب، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

وفى قوله:**{والله عَزِيزٌ}** إشارة إلى القدرة التامة على العاقب، وفى قوله:**{ذُو انتِقَامٍ}** إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب، ينزله متى شاء، وكيف شاء، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته، والوصف الأول صفة للذات والثانى صفة للفعل

ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شئ فقال:**{إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء}** أى أنه سبحانه - هو المطلع على كل صغير وكبير وجليل وحقير، فى هذا الكون، لأنه هو الخالق له، والمهيمن على شؤونه وصدق - سبحانه - حيث يقول:**{أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير}** وذكر - سبحانه - السماء والأرض، للإشارة إلى أن علمه وسع كل شئ، وسع السموات والأرض، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الانسان وما يخفيه؟

وفى تكرير حرف النهى " لا " تأكيد لنفى خفاء أى شىء عليه - سبحانه - والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته، لأنه - سبحانه - وهو العليم بما يسرونه وما يعلنونه، سيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال:**{هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم}**

وقوله:**{يُصَوِّرُكُمْ}** من التصوير وهو جعل الشئ على صورة لم يكن عليها وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله

والله - تعالى - القادر على كل شىء قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى:**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين}**[1] والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله، حتى يبرزه إلى الوجود بشرا سويا

(١) المؤمنون: ١٢.

والمعنى: الله الذى لا إله إلا هو والذى هو الحى القيوم، هو الذى يصوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء، بأن جعل بعضكم طويلا وبعضكم قصيراً، وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا ذكر وتلك أنثى، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة، ومن كان شأنه كذلك فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا إله إلا هو**{العَزِيزُ}** الذى يقهر كل شئ بقوته وقدرته**{الحَكِيمُ}** فى كل شؤونه وتصرفاته

وهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للتى قبلها، لأن قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشراً سوياً، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام، بل إنه - سبحانه - ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، فهو - كما يقول القرطبى - العالم بما كان وما يكون ومالا يكون

ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً

وقوله - تعالى:**{كَيْفَ يَشَآءُ}** إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعا لقانون الأسباب والمسببات، إذ هو الفعال لما يريد فمن شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضله

و**{كَيْفَ}** فى موضع نصب على أنه حال، وناصبه الفعل الذى بعده وهو**{يَشَآءُ}** ومفعول المشيئة محذوف والتقدير: هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء تصويركم، من ذكر وأنثى، وجميل ودميم، وغير ذلك من مظاهر التفاوت والاختلاف فى الصور والأشكال والعقول والميول

وقوله - تعالى:**{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** تأكيد لما قبله، من انفراده بالألوهية، وحقيقة المعبودية، بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حياً قيوماً، منزلاً للكتب الهادية للناس إلى الحق عالماً بكل شىء، مصوراً لخلقه وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص، ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب ونية صادقة [1]

* * * * *

(١) سيد طنطاوى فى الوسيط: ٥٠.

المطلب الثاني:

الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}(١)

قال القرطبي: " لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذى يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: **«نعم»** قالا: وأنت أحمد؟ قال: **«نعم»** قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك فقال لهما رسول الله ﷺ : **«سلانى»** فقالا: أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى - على نبيه ﷺ**{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط}** فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ وقوله تعالى:**{شَهِدَ اللَّهُ}** أى بين وأعلم كما يقول: شهد فلان عند القاضى إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو قال الزجاج: " الشاهد هو الذى يعلم الشيء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين"

والمعنى: أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه، وبالآيات الكونية التى لا يقدر على خلقها أحد سواه، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بوحدانيته، وأنه لا معبود بحق سواه، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وفقراء إليه وهو الغنى عن كل ما عداه وشهد بذلك " الملائكة " بأن أقروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد فعبدوه حق العبادة، وأطاعوه حق الطاعة، وشهد بذلك أيضاً " أولو العلم " بأن اعترفوا له - سبحانه - بالوحدانية، وصدقوا بما جاهم به الرسول ﷺ وبلغوا ذلك لغيرهم

(١) آل عمران: ١٨ - ٢٠.

قال الزمخشرى: شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التى لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسى وغيرهما، بشهادة الشاهد فى البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه "

وقالوا: وفى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء، لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ:**{وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}** فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم وقال ﷺ : **«إن العلماء ورثة الأنبياء»** وقال: **«العلماء أمناء الله على خلقه»** وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم في الدين خطير [1]

والمراد بأولى العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة عقيدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصوا لله في عبادتهم، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم وقدم سبحانه - الملائكة على أولى العلم، لأن فيهم من هو واسطة لتوصيل العلم إلى ذويه، لأن علمهم كله ضرورى بخلاف البشر فإن علمهم منه ما ضرورى، ومنه ما هو اكتسابى

وقوله – تعالى:**{قَآئِمَاً بالقسط}** بيان لكماله - سبحانه - في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته والقسط: العدل يقال: قسط ويقسط قسطاً، وأقسط إقساطاً فهو مقسط إذا عدل ومنه:**{إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين}** ويطلق القسط على الجور، والفاعل قاسط، ومنه**{وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً}** أى: مقيما للعدل في تدبير أمر خلقه، وفى أحكامه وفيما يقسم بينهم من الأرزاق والآجال، وفيما يأمر به وينهى عنه، وفى كل شأن من شؤونه

قال: الجمل: و**{قَآئِمَاً}** منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال أيضا فى حيز الشهادة، فيكون المشهود به أمرين: الوحدانية والقيام بالقسط وهذا أحسن من جعله حالاً من الاسم الجليل فاعل شهد، لأن عليه يكون المشهود به الوحدانية فقط والحال ليست في حيز الشهادة

وقوله:**{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** تكرير للمشهود به للتأكيد والتقرير، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل، والاعتناء به

(١) تفسير القرطبى: ٥٢.

يقتضى الاعتناء بأدلته**{العَزِيزُ الحَكِيمُ}** صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل أى لا إله في هذا الوجود يستحق العبادة بحق إلا الله**{العَزِيزِ}** الذى لا يمتنع عليه شىء أراده، وينتصر من كل أحد عاقبه أو انتقم منه**{الحَكِيمِ}** في تدبيره فلا يدخله خلل

قال ابن جرير: " وإنما عنى جل ثناؤه - بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجوا رسول الله ﷺ في عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك: من أن له شريكا، واتخاذهم دونه أربابا، فأخبرهم الله عن نفسه، أنه الخالق كل ما سواه، وأنه رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه فبدأ - جل ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سن لعباده أن يبدؤوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدباً خلقه بذلك "

هذا، ومن الآثار التى وردت في فضل هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية:**{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم}** إلى أخر الآية فقال ﷺ: " وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب " وقال غالب القطان: أتيت الكوفة في تجارة لي فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه، فقام في ليلة متهجداً فمر بهذه الآية**{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ}** فقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة**{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}**، قالها مراراً فقلت: لقد سمع فيها شيئا فسألته في ذلك فقال: حدثني أبو وائل بن عبد الله قال رسول الله ﷺ : **«يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله – تعالى: عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى العهد أدخلوا عبدى الجنة»**

وقوله:**{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}** جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى وأصل الدين فى اللغة: الجزاء والحساب يقال دنته بما صنع أى جازيته على صنيعه، ومنه قولهم: كما تدين تدان أى، كما تفعل تجازى، وفي الحديث: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»** والمراد به هنا: ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات، فيكون بمعنى الملة والشرع

أى: إن الشريعة المرضية عند الله - تعالى - هى الإسلام، والإسلام في اللغة: هو الاستسلام والانقياد يقال: أسلم أى انقاد واستسلم وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا

- كما قال ابن جرير: " شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزى بالإحسان إلا به " وهو الدين الحنيف الذى جاء به محمد ﷺ

وقال ابن كثير: وقوله - تعالى:**{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}** إخبار منه تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقى الله تعالى - بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال - تعالى:**{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ}** الآية وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام**{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام}** وقوله:**{عِندَ اللَّهِ}** ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنه من معنى الفعل، أى الذى شرع عند الله الإسلام ويصح أن يكون صفى للدين فيكون متعلقا بمحذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقوله**{عِندَ الله}** وباعتبار الإسلام وحده، هو دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، إشعار بفضل الإسلام، لأن له ذلك الشرف الإضافى إلى خالق هذا الكون ومربيه، فهو دين الله الذى شرعه لخلقه

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب في شأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى:**{وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ}**

أى: وما كان خلاف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به الرسول ﷺ إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذي لا باطل معه، فخلافهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم

وفي التعبير عنهم بأنهم**{أُوتُوا الكِتَابَ}** زيادة تقبيح لهم؛ فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلا لهدايتهم، وسعادتهم فإذا تركوا بشاراته وتوجيهاته واتبعوا أهواءهم كان فعلهم هذا أشد قبحاً وفحشاً

وقوله:**{إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم}** زيادة أخرى في تقبيح أفعالهم، فإن الاختلاف بعد

مجىء العلم أزيد في القبح والعناد والاستثناء من أعم الأحوال أو الأوقات، أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق، والعلم بالحق وحده لا يكفي في الإيمان به، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مخلص متفتح لطلبه، وكم من أناس يعرفون الحق معرفة تامة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول:**{الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم بأنه حق، لأن العلم كالمطر، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية، وكذلك لايستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية، والأفئدة المستقيمة

وقوله:**{بَغْياً بَيْنَهُمْ}** مفعول لأجله، والعامل فيه اختلف أى وما اختلفوا إلا للبغى لا لغيره، قال القرطبي: " وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم "

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال:**{وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب}** أى: ومن يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - فإن الله محص عليه أعماله في الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه في الآخرة

فقوله:**{فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب}** قائم مقام جواب الشرط وعلة له، أى: ومن يكفر بآيات الله فإنه - سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ ما يرد به على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من المشركين وليمضى فى طريقه الواضح المستقيم فقال – تعالى:**{فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّهِ وَمَنِ اتبعن}**

وقوله:**{حَآجُّوكَ}** من المحاجة وهى أن يتبادل المتجادلان الحجة، بأن يقدم كل واحد حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعم أنه الحق الذى لا شك فيه

والمعنى: فإن جادلك - يا محمد - أهل الكتاب ومن لف لفهم بالأقاويل المزورة والمغالطات الباطلة بعد أن قامت الحجج على صدقك فلا تسر معهم في لجاجتهم، ولا

تلتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم:**{أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن}** أى أخلصت عبادتى لله وحده، وأطعته وانقدت له، وكذلك من اتبعنى وآمن بى قد أسلم وجهه له وأخلص له العبادة

والمراد بالوجه هنا: الذات، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأنه أشرف أعضاء الشخص، ولأنه هو الذي تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل

و**{وَمَنِ}** في قوله:**{وَمَنِ اتبعن}** في محل رفع عطفا على الضمير المتصل في**{أَسْلَمْتُ}** أى أسلمت أنا ومن اتبعنى، وجاء العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما

وقوله:**{وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ}** عطف على الجملة الشرطية، والمراد بالأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب

والاستفهام فى قوله:**{أَأَسْلَمْتُمْ}** للحض على أن يسلموا وجوههم لله، ويتبعوا الرسول ﷺ كما اتبعه المسلمون

والمعنى: فإن جادلوك في الدين - يا محمد - بعد أن تبين لكل عاقل صدقك، فقل لهؤلاء المعاندين إني أسلمت وجهى لله وكذلك أتباعى أسلموا وجوههم لله، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا تسلموا فقد تبين لكن أنى على حق، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن يدخل فيه وأن يترك العناد والمكابرة

قال صاحب الكشاف: وقوله:**{أَأَسْلَمْتُمْ}** ؟ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لك أم لا؟ ومنه قوله - تعالى:**{فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ}** بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر وفي هذا الاستفهام استقصار - أى عد المخاطب قاصراً - وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف في إذعانه للحق

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج، وما يترتب على إعراضهم من شرور تعود عليهم فقال:**{فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ والله بَصِيرٌ بالعباد}**

أى: فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ فقد اهتدوا إلى طريق الحق، لأن هذا الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله للناس وإن أعرضوا عن هذا الطريق المستقيم، فإن إعراضهم لن يضرك - أيها الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ الناس ما أمرك الله بتبليغه إياهم وهو - سبحانه - بصير بخلقه لا تخفى عليه خافية من أقوالهم أو أفعالهم، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه

وعبر بالماضى فى قوله:**{فَقَدِ اهتدوا}** مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وقوله:**{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ}** قائم مقام جواب الشرط أى وإن تولوا لا يضرك توليهم شيئا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد أديته على أكمل وجه وأبلغه

وقوله:**{والله بَصِيرٌ بالعباد}** تذييل فيه عزاء للنبي ﷺ عن كفرهم، وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم، لأنه - سبحانه - عليم بنفوس الناس جميعا وسيجازى كل إنسان بما يستحقه، وفيه كذلك وعد للمؤمنين بحسن العاقبة، وجزيل الثواب

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله - تعالى:**{قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}**[1] وقال - تعالى:**{تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً}**[2] وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: **«والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهدى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار»**

وقال ﷺ : **«أعطيت خمسا بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ونصرت بالرعب شهرا وأعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سأل شفاعة وإني أخبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئا»** [3]

وقال: " كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " وعن أنس - رضى الله

(١) الأعراف: ١٥٨.
(٢) الفرقان: ١.
(٣) مسند أحمد: ١٨٩٠٢.

عنه - أن غلاما يهودياً كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبى ﷺ : **«يا فلان قل لا إله إلا الله»**، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ القول فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم فقال الغلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فخرج النبى ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذى أخرجه بى من النار»** (١)

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد بينت للناس في كل زمان ومكان أن دين الإسلام هو الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده وشهد بذلك خالق هذا الكون - عز وجل - وكفى بشهادته شهادة كما شهد بذلك الملائكة المقربون والعلماء المخلصون كما بينت أن كثيرا من الذين أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمونها ظلماً وبغياً، كما بينت - أيضاً - أن الذين يدخلون فى هذا الدين يكونون بدخولهم قد اهتدوا إلى الطريق القويم، وأن الذين يعرضون عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن الحق المبين

ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التى عرف بها اليهود وعرف بها أسلافهم، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم

* * * * *

المطلب الثالث:

جزاء قتل الأنبياء

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (٢)

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة فهو متوقع هنا وهناك وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور فالحبوط: هو انتفاخ الدابة

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٥٢٢٥.
(٢) آل عمران: ٢١ - ٢٥.

التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حامٍ!

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع وكثير ما هم في كل زمان

ويحسن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصف**{الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}**؟ فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية، وقصر العبودية عليها وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ولو قالها ألف مرة باللسان! وسنرى في الآيات التالية في السياق مصداق هذا الكلام

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب موقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى وكل منهما " نصيب» من الكتاب باعتبار أن كتاب الله هو كل ما أنزل على رسله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيباً منه، وأوتي النصارى نصيباً منه، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله، ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب

سؤال التعجيب من هؤلاء**{الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ}** ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله؛ والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ}

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة فكيف بمن يقولون: إنهم مسلمون، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون» هم الذين يعرضون هذا الإعراض إنه العجب الذي لا ينقضي، والبلاء الذي لا يقدر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله! والعياذ بالله!

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة، وجدية القسط الإلهي الذي لا يحابي ولا يميل يتجلى هذا في قولهم:**{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ}**

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات؟ لماذا وهم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعدل الله؟ بل إذا كانوا يحسون أصلاً بجدية لقاء الله؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء، ثم يغرهم هذا الافتراء:**{وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله

وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون وفيهم من يتبجحون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل العائلية، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصي، ثم يساقون إلى الجنة! أليسوا مسلمين؟ إنه نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له في الدين

وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين، وتملصهم من حقيقته التي يرضاها الله: الإسلام: الاستسلام والطاعة والاتباع والتلقي من الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة: **{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}**

كيف؟ إنه التهديد الرهيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله، وجدية عدل الله؛ ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة وهو بعد تهديد قائم للجميع مشركين وملحدين، وأهل كتاب ومدعي إسلام، فهم سواء في أنهم لا يحققون في حياتهم الإسلام!

{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} وجرى العدل الإلهي مجراه؟**{وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ}** بلا ظلم ولا محاباة؟**{وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** كما أنهم لا يحابون في حساب الله؟

سؤال يلقى ويترك بلا جواب وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب!

بعدئذ يلقن رسول الله - ﷺ - وكل مؤمن، أن يتجه إلى الله، مقرراً حقيقة الألوهية الواحدة، وحقيقة القوامة الواحدة، في حياة البشر، وفي تدبير الكون فهذه وتلك كلتاهما مظهر للألوهية وللحاكمية التي لا شريك لله فيها ولا شبيه[1]

* * * * *

(١) الظلال صفحة: ٥٣.

المطلب الرابع:

قصة عيسى عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته

{إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَه كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}(١)

قولـه:**{يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** أى يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب، لأن غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل عن ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك، بل خلقه الله - تعالى - خلقا آخر، خلقه**{بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** وهى " كن " فكان كما أراده الله و" من " فى قولـه: " منه " لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة: أى بكلمة كائنة منه

فالمراد بقولـه: " كلمة " أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين

ورجح ابن جرير أن معنى**{بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}** ببشرى منه - سبحانه - فقد قال: وقولـه: "بكلمة منه " يعنى برسالة من الله وخير من عنده وهو من قول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم"

(١) آل عمران: ٤٥ /٥١.

وعلى كلا التأويلين ففى التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله تكريم له وتشريف، وقوله:{اسْمُهُ المَسِيحُ} مبتدأ وخبر، والجملة نعت والضمير في قوله:{اسْمُهُ} يعود إلى كلمة وجاء مذكراً رعاية للمعنى لأننا سبق بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد

والمسيح: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفسه:{قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً} وقيل: المسيح فعيل بمعنى فاعل، للمبالغة في مسحه الأرض بالسياحة للعبادة: أو مسحه ذا العاهة ليبرأ أو بمعنى مفعول أي ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب

وعيسى: اسم لهذا الاسم الكريم، وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء

قال الراغب: عيسى اسم علم، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم بعيراً عيسى وناقة عيساء وجمعها عيس وهى إبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة " أى فيها اغبرار قليل يعطى بياضها صفاءً ونقاءً وجمالاً

وابن مريم: هو كنيته، وهي للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابناً لله - تعالى - كما قال الضالون

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الأباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين: فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة قلت: لأن المسمى بها مذكر فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل: الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة "

والمعنى الإجمالي للجملة الكريمة: اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر، ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى:**{وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ}**

أما الصفة الأولى فهي قوله - تعالى:**{وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}** أى ذا جاه وشرف ومنزلة عالية يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره

وعيسى عليه السلام، شهد الله تعالى له، - وكفى بالله شهيداً - شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة في الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها

والصفة الثانية من صفاته أنه:**{المُقَرَّبِينَ}** أى أنه من المقربين عند الله - تعالى:**{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً}** وهذه الجملة معطوفة على قوله:**{وَجِيهاً}** وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما، والمهد اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهيأ له وهو في الرضاعة والكهل: هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل أوان الكلام، كما يكلمهم في حال كهولته واكتمال شبابه، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن في سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى:**{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً**

بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}[1] أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى:**{وَمِنَ الصَّالِحِينَ}** أى عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه، قالوا: ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال والتروك مواظبا على المنهج الأصلح، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة:**{رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين}**[2] فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات "

تلك هي البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم، وتلك هي بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها، وشدة تأثرها فقال - تعالى:**{قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}**

أى: قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب: يا رب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر، أى لست بذات زوج، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد

والجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل: فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب:**{قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ}** إلخ

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى – وجملة:**{وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** حالية محققة لما مر ومقوية له

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة والتي يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها

(١) سورة مريم: ٢٩ - ٣١.
(٢) النمل: ١٩.

لم يلمسها رجل، لأنها كانت معتكفة في بيت الله ومنصرفة لعبادته، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله:**{قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ}**

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته: كهذا الخلق الذى تجدينه، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه

وبعضهم يجعل الوقوف على " كذلك " فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى قال - سبحانه - فى إجابته على مريم: الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات - الله - خالقه وخالق كل شىء، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء**{إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى:**{وَيُعَلِّمُهُ الكتاب}**

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بياناً حكيماً عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها

وقوله - تعالى:**{وَيُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل}** معطوف على**{يُبَشِّرُكِ}** أى: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - الكتاب، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقولٍ محذوف من كلام الملائكة أى ويقول الله - تعالى - ونعلمه وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله: " وجيها " فكأنه قال: وجيهاً ومعلماً

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة المستأنفة سيقت تطييبا لقلب مريم، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر

ولقد حكى القرآن عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها

المخاض{ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً}[1] والمراد بالكتاب: الكتابة والخط، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحى وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية

قال الفخر الرازى: " والأقرب عندى أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ثم المراد بالحكمة: تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار عظيمة والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل وإنما أخر ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا في العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية "

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأ لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى:{وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ} أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام - رسولاً إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ألا وهو محمد ﷺ

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان: لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم وانبعث منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله، بل لم

(١) سورة مريم: ٢٣.

يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم

وقولـه:**{وَرَسُولاً}** منصـوب بمضـمر يعـود إليـه المعنـى، معطـوف علـى**{وَيُعَلِّمُهُ}** أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل

وقولـه:**{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** معمول لقولـه:**{رَسُولاً}** لمـا فيـه مـن معنـى النطـق كأنه قيل: ورسولاً ناطقاً بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقولـه:**{مِّن رَّبِّكُمْ}** متعلق بمحذوف صفة لآية والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها

أى: أن الله - تعـالى - قـد علـم عيسـى - عليـه السـلام - الكتـاب والحكمـة والتـوراة والإنجيل وجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل مخبراً إياهم بـأنى رسول الله إليكم حـال كونـى ملتبساً مجيئى بالمعجزات الدالـة علـى صـدقى، وهذه المعجـزات ليسـت مـن عنـدى وإنمـا هى من عند ربكم

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجـزات عيسـى - عليـه السـلام - أمـا المعجـزة الأولى فعبر عنها بقولـه:**{أني أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله}**

قـال الآلوسـى: " وقولــه:**{أني أَخْلُقُ لَكُـمْ}** الـخ بـدل مـن قولــه:**{أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ}** أو من**{آيَةٍ}** أو منصوب على المفعولية لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جئتكم بآية من ربكم هـى أنـى أخلق لكم وقرأ نـافع بكسر الهمزة علـى الاستئناف، والمـراد بـالخلق: التصـوير والإبـراز علـى مقدار معين لا الإيجـاد مـن العدم "

والمعنى أن عيسى - عليـه السـلام - قد حكـى الله - عنـه أنـه قـال لبنـى إسـرائيل: لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته، ولآمركم بـإخلاص العبـادة لــه، وقد أعطـانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى، ومن بين هذه المعجزات أنـى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئاً صـورته مثل صـورة الطير، فـأنفخ فـى ذلك الشـىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيراً حقيقياً ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته فأنت تـرى أن الجملة الكريمة قد اشتملت علـى ثلاثـة أعمـال: ثنتـان منهمـا لعيسـى وهمـا تصـوير الطـين كهيئة الطير ثم النفخ فيه

أما الثالث: فهو من صنع الله تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها ولا حكى الله - تعالى - عنه أنه قال:**{بِإِذْنِ الله}** أي أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره، واللام في قوله:**{لَكُمْ}** للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى

والكاف فى قوله:**{كَهَيْئَةِ الطير}** بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئاً مثل هيئة الطير، والهيئة هى الصورة والكيفية والضمير فى قوله:**{فَأَنفُخُ فِيهِ}** يعود إلى هذا المفعول المحذوف وقوله:**{بِإِذْنِ الله}** متعلق بيكون، وجىء به لإظهار العبودية، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكاً لله فى خلق الكائنات

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن فى قوله - تعالى:**{وَأُبْرِىءُ}** أى أشفى، يقال: برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه

والأكمه: هو الذى يولد أعمى يقال كمه: كمها إذا ولد أعمى، فهو أكمه وامرأة كمهاء

والأبرص: هو الذى يكون في جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه: والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص، وأعيد الحياة إلى من مات ولا أفعل كل ذلك بقدرتي وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر؛ لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقاً مختاراً لا يعجزه شىء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - وقوله:**{وَأُحْيِ الموتى بِإِذْنِ الله}** فيه تدرج من الصعب إلى الأصعب، لأن مما لا شك فيه أن إحياء الموتى خارق عظيم، يدل دلال قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى

المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله: للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق وإنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح

قال ابن كثير: بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّارٍ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وأما عيسى فعبث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحدٍ إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبداً، وماذاك إلى أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق "

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن في قوله - تعالى:**{وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}**

وقوله - تعالى:**{وَأُنَبِّئُكُمْ}** من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن

وقوله**{تَدَّخِرُونَ}** من الإدخار وهو إعداد الشىء لوقت الحاجة إليه يقال: دخرته وادخرته، إذ أعدته للعقبى واصله " تذتخرون " بالذال المعجمة - من اذتخر الشىء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء دالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتى التى تدل على صدقى فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبؤونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه

قال القرطبى: وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما

نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد، فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قولـه:{وَأُنَبِّئُكُمْ}

و " مـا " فـي الوضـعين موصـولة، أو نكرة موصـوفة والعائد محذوف أى بمـا تأكلونـه وتدخرونه

ولا شك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذي يدخرونه يدل على صدقه، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقولـه:{إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}

أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها

فاسم الإشارة " ذلك " يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير: إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى:{وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ}

وقولـه - تعالى:{وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة} عطف على المضمر الذى تعلق به قولـه تعالى:{بِآيَةٍ} أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم، ومصدقا لما بين يدى وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه " قد جئتكم " أى جئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة والإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل: إن الله - تعالى - قد أرسلني إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التي تثبت صدقى وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة أي مقررا لها ومؤمناً بها

ومعنى ما بين يدى: ما تقدم قبلى؛ لأن المتقدم السابق يمشي بين يدى الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السبق، وإن كان عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ويستعمل بين يدى كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى:**{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** وقوله:**{وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}** معمول لمقدر بعد الواو، أى: وجئتكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله – تعالى:**{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}** فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين: ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية:**{وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ}** قالوا ومن الأطعمة التي أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى: لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور

وقوله:**{وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ}** تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه

قال الفخر الرازى: " وإنما أعاد قوله - تعالى:**{وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا في طباعهم ثم خوفهم فقال:**{فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ}** لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم عن ربى"

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبداً لله مخلوقا له، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله

وحده ولا يشركوا به شيئاً فقال:{إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} أى قال عيسى - عليه السلام - داعياً قومه إلى عبادة الله - تعالى: هو الذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى وربباكم، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هي الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكت لنا بعض التوجيهات القويمة، والإرشادات الحكمية التي نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم

والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو: ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات؟

لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته[١]

* * * * *

المطلب الخامس:

عيسى عليه السلام مع قومه

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}[٢]

(١) تفسير سيد طنطاوى: ٥٥.
(٢) آل عمران: ٥٢ - ٦٣.

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} أي: رأى منهم عدم الانقياد لـه، وقالوا: هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك**{قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله**{قَالَ الحَوَارِيُّونَ}** وهم الأنصار:**{نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك

وقالوا:**{آمَنَّا بِاللَّهِ}** **{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا:**{وَمَكَرُوا}** أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره**{وَمَكَرَ اللَّهُ}** بهم جزاء لهم على مكرهم:**{وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ}** رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله**{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}**

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته: أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى:**{وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى:**{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}** ثم قال تعالى:**{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ}** وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمدا ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ**{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}** أي: مصير الخلائق كلها**{فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** كل يدعي أن

الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان

ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال:**{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي: بالله وآياته ورسله**{فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار**{وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}** ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به**{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين**{فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ}** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه**{وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه

{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ} وهذه منة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:**{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَه كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**

يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلا أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته،

فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح إدعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالى:**{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الحَقُّ مِن رَّبِّكَ}** أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام

{فَلاَ تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ} أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى:**{فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ}** وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه**{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**

أي:**{فَمَن}** جادلك**{حَاجَّكَ}** في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته**{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ}** بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم فلم يجدوا أهلا ولا مالا وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا

بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالى:{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}

{فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأخبر تعالى:{إِنْ هَذَا} الذي قصه الله على عباده هو{الْقَصَصُ الحَقُّ} وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل{وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ} فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ} الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء{الحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل(١)

* * * * *

المطلب السادس:

دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (٢)

(١) تفسير السعدى صفحة: ٥٦.
(٢) آل عمران: ٦٤ - ٧٤.

وساق الطبرى بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى:**{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ}**

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مع النبي ﷺ أو مع بعضهم البعض في حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك ثم - وهذا هو الأهم - تكذيب دعوى النبي ﷺ أنه على دين إبراهيم، وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد؛ ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً؟ إنها دعوى مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}

ثم يمضي في التنديد بهم؛ وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار:

{هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام؛ كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم تولوا وهم معرضون وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم، ووجود كتبهم وديانـاتهم فهو الأمر الذي لا سند لـه ولو كان سنداً شكلياً فهو الجدل إذن لذات الجدل وهو المراء الذي لا يسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوى ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول!

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه، ونزع الثقة منهم ومما يقولون، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله فهو - سبحانه - الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول؛ إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل:**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ}**

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم - عليه السلام - ما كان يهودياً ولا نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ويقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلماً مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه**{وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ}** وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها:**{وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً}** ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

يشير أولاً: إلى أن اليهود والنصارى - الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة - مشركون ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً!

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر فلا يلتقيان الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه وكل مقتضياته ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً

ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة فهو حنيف مسلم، وهم مشركون

{وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ}!

وما دام أن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فليس لأي من اليهود أو النصارى - أو المشركين أيضاً - أن يدعي وراثته، ولا الولاية على دينه، وهم بعيدون عن عقيدته

والعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض، إذا أنبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه بالنفخة التي جعلت منه إنساناً ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج! والولاية بين فرد وفرد،

وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة، يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة، والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس؛ ويتجمعون أولياء - بالعقيدة وحدها - والله من ورائهم ولي الجميع:

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}

فالذين اتبعوا إبراهيم - في حياته - وساروا على منهجه، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه ثم هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين ثم الذين آمنوا بهذا النبي ﷺ فالتقوا مع إبراهيم - عليه السلام - في المنهج والطريق

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}

فهم حزبه الذين ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

وهذه الصورة هي أرقى صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني وتميزه من القطيع! كما أنها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود لأن القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هي الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هي القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هي اللون - ولا يملك بيسر أن يغير لغته إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك بيسر أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلاً ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم

عناصره، المميزة لـه من القطيع!

والبشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام - أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور وإما أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

ثم يكشف للجماعة المسلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مراء ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة أيضاً وهو يمزق عنهم الأردية التي يتخفون تحتها، فيقفهم أمام الجماعة المسلمة عراة مفضوحين(١)

أنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات فى هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يخلصوا لله العبادة فقال**{قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}**

والسواء: العدل والنصفة، أى قل يا محمد لأهل الكتاب: هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم

أو السواء: مصدر مستوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق

ثم بين - سبحانه - هذه الكلمة العادلة المستقيمة التى هى محل اتفاق بين الأنبياء فقال:**{أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله}** أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان

{وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً} أى ولا نشرك معه أحدا فى العبادة والخضوع، بأن نقول: فلان إله، أو فلان ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة

{وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله} أى ولا يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله قال الآلوسى: ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال: ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال ﷺ : **«أما كانوا يحلون منكم ويحرمون**

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ٥٨.

فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم فقال ﷺ : **«هو ذاك»** [1] قيل إلى هذا أشار - سبحانه - بقوله:**{اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ}** فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك، وعن أن يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قوله - تعالى:**{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}** وقوله - تعالى:**{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون}** ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال:**{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}**

أى فإن أعرض هؤلاء الكفاء عن دعوة الحق، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، بل قولوا لهم: اشهدوا: بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل

قال صاحب الكشاف: وقوله:**{فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال وصراع أو غيرهما: اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعنا: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره"[2]

هذا وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقى رصين، ولذا كان النبى ﷺ يكتبها في بعض رسائله التى أرسلها إلى الملكوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام

فقد جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل - ملك الروم:

" من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى

أما بعد:

(١) سنن الترمذى: ٣٠٢٠.
(٢) الكشاف: 1/50.

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،**{ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً}**

وأما النداء الثانى الذى اشتملت عليه هذه الآيات فقد تضمن نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - قال تعالى:**{ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}**"

وساق ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده، قالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله - تعالى - فيهم:**{ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ}**

وقوله:**{تُحَآجُّونَ}** من المحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها [1]

والمعنى: لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية، فإن التوارة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان طويلة، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده، أو كيف يكون نصرانياً يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده، بآلاف السنين؟ إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد

وقوله:**{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا للشىء المتأخر عنه؟

فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهودياً أو نصرانياً

ثم بين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى:**{هاأنتم هؤلاء**

(١) ابن جرير الطبرى: 1/57.

حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ}

والمعنى: أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة

وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة، والنفوس المستقيمة

وقوله - تعالى:**{هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ}** ها حرف تنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف و**{حَاجَجْتُمْ}** جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى والمعنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم " فيما لكم به علم " مما نطق به التوراة والإنجيل**{فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}** ولا ذكر له فى كتابيكم من دين إبراهيم ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم"

وتكرير هاء التنبيه فى قوله:**{هاأنتم هؤلاء}** يشعر بغرابة ما هم عليه من جهل، ومجافاته لكل منطق سليم

قال الرازي: وقوله:**{هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ}** يحتمل أنه لم يصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون عمله، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبته "

وقوله - تعالى:**{والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}** تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعمل كل شىء فى هذا الوجود، وأنتم لا تعلمون ذلك[1]

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال -

(١) الرازي: 1/60.

تعالى:**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين}**

وقولـه:**{حَنِيفاً}** من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال: تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة

أى: ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهودياً كما قال اليهود، ولا نصرانياً كما قال النصارى ولكنه كان حنيفاً أى مائلا عن العقائد الزائفة متحرياً طريق الاستقامة وكان " مسلماً " أى مستسلما لله - تعالى - منقاداً لـه مخلصاً لـه العبادة**{وَمَا كَانَ مِنَ المشركين}** الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة

ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً او نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك

وعن أنس رضى الله عنه قال: " جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ : **«ذاك إبراهيم عليه السلام»** (١)

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال:**{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ}**

وقولـه - تعالى:**{أَوْلَى}** أفعل تفضيل من الولى وهو القرب

والمعنى: إن أقرب الناس من إبراهيم، وأخصهم به، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة:

أولهم: بينه الله بقولـه:**{لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}** ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهودياً أو نصرانياً

وثاني: هذه الأصناف: بينه - سبحانه - بقولـه:**{وَهَذَا النَّبِيُّ}** والمراد به محمد ﷺ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به وللإشعار بأنه ﷺ قد تلقى

(١) صحيح مسلم - الفضائل - من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ : ٤٣٦٧.

الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام -

وثالث: هذه الأصناف: بينه الله - تعالى - بقوله**{والذين آمَنُواْ}** أى: والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه

وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية، وتقرير بأن أتباع محمد ﷺ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم

وقوله:**{وَاللَّهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ}** تذييل مقصود به تبير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم ومتولى أمورهم

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبى يعنى محمدا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لكل نبى ولاية من النبيين، وإن وليى منهم أبى خليل ربى عز وجل إبراهيم عليه السلام»** ثم قرأ:**{إِنَّ أَوْلَى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتبعوه}** (١)

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم**{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ}** والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا ثم وصفها بقوله:**{سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}** أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها ثم فسرها بقوله:**{أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}**

لا وَثَنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا نارًا، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى:**{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** (٢)

(١) ابن كثير: ٥٨/١.
(٢) الأنبياء: ٢٥.

وقال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (١)

ثم قال:{وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} وقال ابن جُرَيْج: يعني: يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعضٍ

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم

وفي شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري،، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مُشْرِكًا لم يُسْلم بعد، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، كما هو مُصَرّح به في الحديث، ولأنه لما قال يغدر؟ قال: فقلت: لا ونحن منه في مُدة لا ندري ما هو صانع فيها قال: ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَك مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأريسيِّين:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} أي: كيف تَدّعُون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تَدّعُون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ولهذا قال:{أَفَلا

(١) النحل: ٣٦.

تَعْقِلُونَ}[1]

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ} من اليهود والنصارى{لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبراهيم} أي في مِلّته وشريعتِه تنازعت اليهودُ والنصارى في إبراهيمَ عليه السلام وزعم كلٌّ منهم أنه عليه السلام منهم وترافَعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم{وَمَا أُنزِلَتِ التوراة} على موسى عليه الصلاة والسلام{وَالإِنجِيلَ} على عيسى عليه الصلاة والسلام{إِلاَّ مِن بَعْدِهِ} حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألفُ سنةٍ وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنةٍ فكيف يمكن أن يتفوَّهَ به عاقلٌ{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي ألا تتفكرون فلا تعقِلون بطلانَ مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بُطلانه{هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ} جملةٌ من مبتدأ وخبر صُدِّرت بحرف التنبيه ثم بُيِّنت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتِهم أي أنتم هؤلاء الأشخاصُ الحمق حيث{حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ}

في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل،{فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} أصلاً إذ لا ذِكْرَ لدين إبراهيمَ في أحد الكتابين قطعاً وقيل: هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلتُه وقيل: ها أنتم أصلُه أأنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزةُ هاءً{والله يَعْلَمُ} ما حاججتم فيه أو كلَّ شيءٍ فيدخُل فيه ذلك دخولاً أولياً{وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أي محلَّ النزاع أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها ذلك{مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِيّا} تصريحٌ بما نطق به البرهانُ المقرِّر{وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا} أي مائلاً عن العقائد الزائغةِ كلِّها{مُسْلِمًا} أي منقاداً لله تعالى، وليس المرادُ أنه كان على مِلّة الإسلام وإلا لاشترك الإلزامُ{وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ} تعريضٌ بأنهم مشركون بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله وردٌّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ} أي أقربَهم إليه وأخصَّهم به{لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} أي في زمانه{وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} لموافقتهم له في أكثرِ ما شُرع لهم على الأصالة، وقرئ النبيَّ بالنصب عطفاً على الضمير في اتبعوه وبالجر عطفاً على إبراهيمَ{وَاللَّهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ} ينصُرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر ليثبُتَ الحكمُ في النبيِّ ﷺ بدَلالة النصِّ

{وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ} نزلت في اليهود حين دعَوا حُذيفة وعماراً

(١) ابن كثير: ص ٥٨.

ومُعاذاً إلى اليهودية و{لَوْ} بمعنى أن{وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنفُسَهُمْ} جملةٌ حاليةٌ جيء بها للدَلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتِهم على ما هم عليه من الدين القويم أي وما يتخطاهم الإضلالُ ولا يعود وبالُه إلا إليهم لما أنه يُضاعفُ به عذابُهم وقيل: وما يُضِلّون إلا أمثالَهم ويأباه قوله تعالى:{وَمَا يَشْعُرُونَ * أَهْلَ الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بأيات الله} أي بما نَطقتْ به التوراةُ والإنجيلُ ودلت على نبوة محمد ﷺ{وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} أي والحالُ أنكم تشهدون أنها آياتُ الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعتَه في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حقٌّ{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ} بتحريفكم وإبرازِ الباطِلِ في صورته أو بالتقصير في التمييز بينهما، وقرئ تلّبّسون بالتشديد وتلْبَسون بفتح الباء أي تلبَسون الحقَّ مع الباطل كما في قوله عليه السلام: «كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»{وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ} أي نبوةَ محمدٍ ﷺ ونعتَه{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي حقِّيتَه

{وَقَالَت طَّائِفَةٌ مّنْ أَهْلِ الكتاب} وهم رؤساؤُهم ومفسدوهم لأعقابهم{ءامِنُواْ بالذى أنزِلَ على الَّذِينَ آمنُوا} أي أظهروا الإيمانَ بالقرآن المنْزل عليهم{وَجْهَ النهار} أي أولَه{وَاكْفُرُوا} أي أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به{ءاخِرَهُ} مُرائين لهم أنكم آمنتم به بادِيَ الرأي من غير تأملٍ ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأولِ فرجعتم عنه{لَعَلَّهُمْ} أي المؤمنين{يَرْجِعُونَ} عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم والمرادُ بالطائفة كعبُ بنُ الأشرفِ ومالكُ بنُ الصيفِ قالا لأصحابهما لما حُوِّلت القِبلة: آمِنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلّوا إليها أولَ النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخِرَه لعلهم يقولون: هم أعلمُ منا وقد رجَعوا فيرجِعون، وقيل: هم اثنا عشرَ رجلاً من أحبار خيبَر اتفقوا على أن يدخُلوا في الإسلام أولَ النهار ويقولوا آخرَه: نظرنا في كتابنا وشاوَرْنا علماءَنا فلم نجِدْ محمداً بالنعت الذي ورد في التوراة، لعل أصحابه يشكّون فيه

{وَلاَ تُؤْمِنُواْ} أي لا تُقِرّوا بتصديقِ قلبيَ{إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} أي لأهل دينِكم أو لا تُظهروا إيمانَكم وجهَ النهار إلا لمن كان على دينكم من قبلُ، فإن رجوعَهم أرجى وأهمُّ{قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله} يهدي به من يشاءُ إلى الإيمان ويُثبّتُه عليه{أَن يؤتى أَحَدٌ مّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} متعلّقٌ بمحذوفٍ أي دبّرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أو بلا تؤمنوا أي ولا تظهروا إيمانَكم بأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تُفشوه إلى المسلمين لئلا يزيدَ ثباتُهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام

وقولـه تعالى:**{قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله}** اعتراضٌ مفيدٌ لكون كيدِهم غيرَ مُجدٍ لطائل أو خبر إن على هدى الله بدل من الهدى، وقرئ أن يؤتى على الاستفهام التقريعي وهو مؤيدٌ للوجه الأول أي لأن يُؤتى أحدٌ إلخ دبرتم؟ وقرئ أن على أنها نافيةٌ فيكونُ من كلام الطائفةِ، أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبعَ دينَكم وقولوا لهم: ما يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم**{أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبّكُمْ}** عطفٌ على**{أَن يؤتى}** على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربِّكم فيدحَضوا حُجتَكم، والواوُ ضميرُ**{أَحَدٌ}** لأنه في معنى الجمع إذ المرادُ به غيرُ أتباعِهم**{قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء والله واسع عَلِيمٌ}** ردٌّ لهم وإبطالٌ لما زعموه بـ**{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ}** أي يجعل رحمتَه مقصورةً على**{مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ}** كلاهما تذييلٌ لما قبله مقرِّرٌ لمضمونه الحجة الباهرةِ اختصاص وبالِه وضررِه بهم(١)

قال تعالى:**{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ}** أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده

وقولـه:**{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** أى هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع

* * * * *

(١) تفسير أبو السعود صفحة/ ٥٨.

المطلب الثامن:

إحقاق الحق وإبطال الشرك

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[1]

أي من اليهود طائفة تخيل للمسلمين أشياء أنها مما جاء في التوراة، وليست كذلك، إما في الاعتذار عن بعض أفعالهم الذميمة، كقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، وإما للتخليط على المسلمين حتى يشككوهم فيما يخالف ذلك مما ذكره القرآن، أو لإدخال الشك عليهم في بعض ما نزل به القرآن، فاللَّيُّ مجمل، ولكنه مبين بقوله:**{لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ}** وقوله:**{وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ}**

واللَّيُّ في الأصل: الإراغة أي إدارة الجسم غير المتصلب إلى غير الصوْب الذي هو ممتدّ إليه: فمن ذلك ليّ الحَبْل، وليّ العنان للفَرس لإدارته إلى جهة غير صوب سَيره، ومنه ليّ العنق، وليّ الرأس بمعنى الالتفات والإعراض قال تعالى:**{لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ}**[2]

واللّي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم:**{رَاعِنَا}** وفي الحديث من قولهم في السلام على النبي ﷺ : "السامُ عليكم" أي الموت أو "السِّلام بكسر السين عليك" وهذا الذى يشابه الإشمام والاختلاس ومنه إمالة الألف إلى الياء، وقد تتغير الكلمات بالترقيق والتفخيم وباختلاف صفات الحروف والظاهر أنّ الكتاب هو التوراة فلعلهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلماتها بينَ بينَ ليوهموا المسلمين

(١) آل عمران: ٧٨ /٨٠.
(٢) المنافقون: ٥.

معنى غير المعنى المراد، وقد كانت لهم مقدرة ومِراس في هذا

وقريب من هذا ما ذكره المبرّد في الكامل أنّ بعض الأزارقة أعاد بيت عُمر بن أبي ربيعة في مجلس ابن عباس:

رَأتْ رجلاً أما إذا الشمس عَارَضت فيضْحَى وأما بالعشي فيخصر فجعل يضحى يَحْزَى وجعل يَخصر يخسر بالسين لِيشوّه المعنى لأنه غضب من إقبال ابن عباس على سماع شعره وفي الأحاجي والألغاز كثير من هذا كقولهم: إنّ للاّهي إلهاً فوقَه فيقولها أحد بحضرة ناس ولا يشبع كسرة اللاّهي يخالها السامع لله فيظنه كَفَر أو لعلهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيات أو اللحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيلوا للسامعين أنهم يقرؤون التوراة

ويحتمل أن يكون اللّي هنا مجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم: لوى الحجة أي ألقي بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضعه: بالتأويلات الباطلة، والأقيسة الفاسدة، والموضوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله، وأياماً كان فهذااللّيُّ يقصدون منه التمويه على المسلمين لغرض، حكما فعل ابن صوريا في إخفاء حكم رجم الزاني في التوراة وقوله: نحَم وجهه

والمخاطب يتحسبوه المسلمون دون النبي ﷺ أو هو والمسلمون في ظنّ اليهود

وجيء بالمضارع في هاته الأفعال: يلوون، ويَقُولون، للدلالة على تجدّد ذلك وأنه دأبهم وتكرير الكتاب في الآية مرتين، واسم الجلالة أيضاً مرتين، لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما، والمتعلقين به، قال المرزوقي في شرح الحماسة في باب الأدب عند قول يحيى بن زياد:

لما رأيت الشيب لاح بياضه بمفرق ::: رأسي قلت للشيب مرحبا

كان الواجب أن يقول: "قلت له مرحبا لكنهم يكرّرون الأعلام وأسماء الأجناس كثيراً والقصد بالتكرير التفخيم" قلت ومنه قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ::: قهر الموت ذا الغنى والفقيرا

والقراءة المعروفة يلوون: بفتح التحتية وسكون اللام وتخفيف الواو مضارع لوى، وذكر ابن عطيّة أنّ أبا جعفر قرأه: يُلوون بضم ففتح فواو مشدّدة مضارع لوّى بوزن

فعل للمبالغة ولم أر نسبة هذه القراءة إلى أبي جعفر في كتب القراءات

اعتراض واستطراد: فإنه لما ذكر لـيّ اليهودِ ألسنتَهم بالتوراة، وهو ضرب من التحريف، استطرد بذكر التحريف الذي عند النصارى لمناسبة التشابه في التحريف إذ تقَوّل النصارى على المسيح أنه أمرهم بعبادته فالمراد بالبشر عيسى عليه السلام، والمقصود تنزيه عيسى عن أن يكون قال ذلك، ردّاً على النصارى، فيكون رجوعاً إلى الغرض الذي في قوله:**{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}**[1]

وفي "الكشاف": قيل نزلت لأنّ رجلاً قال: يا رسول الله نُسلمُ عليك كما يُسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال: **«لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيئكم واعرِفوا الحق لأهله»** قلت: أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، فعلى تقدير كونه حديثاً مقبولاً فمناسبة ذكر هذه الآية أنها قصد منها الردّ على جميع هذه المعتقدات ووقع في أسباب النزول للواحدي مِن رواية الكلبي، عن ابن عباس: أنّ أبا رافع اليهودي والسيدَ مِن نصارى نجران قالا يا محمد: "أتريد أن نعبدك" فقال رسول الله ﷺ : **«معاذ الله أن يُعبد غير الله»** ونزلت هذه الآية

وقوله:**{مَا كَانَ لِبَشَرٍ}** نفي لاستحقاق أحد لذلك القول واللام فيه للاستحقاق وأصل هذا التركيب في الكلام ما كان فُلان فاعلاً كذا، فلما أريدت المبالغة في النفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدال على الجنس، وجعل نفي الجنس عن الشخص بواسطة نفي الاستحقاق إذ لا طريقة لِحمل اسم ذات على اسم ذات إلاّ بواسطة بعض الحروف، فصار التركيب: ما كان له أن يفعل، ويقال أيضاً: ليس له أن يفعل، ومثل ذلك في الإثبات كقوله تعالى:**{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى}**[2]

فمعنى الآية: ليس قولُ:**{كُونُوا عِبَاداً لِّي}** حقاً لبشر أيِّ بشر كان وهذه اللام هي أصل لام الجحود التي في نحو:**{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ}**[3]، فتراكيب لام الجحود كلّها من قبيل

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) طه: ١١٨.
(٣) الأنفال: ٣٣.

قلب مثل هذا التركيب لقصد المبالغة في النفي، بحيث ينفى أن يكون وجود المسند إليه مجعولاً لأجل فِعْل كذا، أي فهو بريء منه بأصل الخلقة ولذلك سميت جحوداً

والمنفي في ظاهر هذه الآية إيتاء الحكم والنبوءة، ولكن قد علم أنّ مصبّ النفي هو المعطوف من قوله:**{ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي}** أي ما كان له أن يقول كونوا عباداً لي إذا آتاه الله الكتاب

والعباد جمع عبد كالعبيد، وقال ابن عطية: "الذي استقريت في لفظ العباد أنه جمع عبد لا يقصد معه التحقير، والعبيد يقصد منه، ولذلك قال تعالى: "يا عبادي» وسمّت العرب طوائف من العرب سكنوا الحِيرة ودخلوا تحت حكم كِسرى بالعباد، وقيل لأنهم تنصّروا فسموْهم بالعباد، بخلاف جمعه على عَبيد كقولهم: هم عبيد العَصا، وقال حمزةُ بنُ عبد المطلب هل أنتم إلاّ عبيدٌ لأبي؟ ومنه قول الله تعالى:**{وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ}**(١)؛ لأنّه مكان تشفيق وإعْلام بقلة مقدرتهم وأنه تعالى ليس بظلاّم لهم مع ذلك، ولما كان لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك آنس بها في قوله تعالى:**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}**(٢) فهذا النوع من النظر يُسلك به سُبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن على الطريقة العربية السلبية»

وقوله:**{مِن دُونِ اللَّهِ}** قيد قصد منه تشنيع القول بأن يكونوا عباداً للقائل بأنّ ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى إلى عبودية البشر، لأنّ حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين، فإنّ النصارى لما جعلوا عيسى ربّاً لهم، وجعلوه ابناً للّه، قد لزمهم أنهم انخلعوا عن عبودية الله فلا جدوى لقولهم: نحن عبد الله وعبيدُ عيسى، فلذلك جعلت مقالتُهم مقتضية أنّ عيسى أمرهم بأن يكونوا عباداً له دون الله، والمعنى أنّ لآمِر بأن يكون الناس عباداً له هو آمر بانصرافهم عن عبادة الله**{وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}** أي ولكن يقول: كونوا ربانيين أي كونوا منسوبين للربّ، وهو الله تعالى، لأنّ النسب إلى الشيء إنما يَكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه

ومعنى ذلك أن يَكونوا مخلصين لله دون غيره والربّاني نسبة إلى الرب على غير

(١) فصلت: ٤٦.
(٢) الزمر: ٥٣.

قياس كما يقال اللّحياني لعظيم اللحية، والشَّعراني لكثير الشعرَ

وقولـه:**{بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ}** أي لأنّ علمكم الكتـاب من شـأنه أن يصـدّكم عن إشراك العبادة، فإنّ فائدة العلم العمل

وقرأ الجمهور: بما كنتم تعلمون بفتح المثناة الفوقية وسكون العين وفتح اللام مضارع عَلِم وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف: بضم ففتح فلام مشدّدة مكسورة مضارع عَلَّم المضاعف

{تَدْرُسُونَ} معناه تقرؤون أي قراءة بإعادة وتكرير: لأنّ مادّة درس في كلام العرب تحوم حول معاني التأثر من تكرّر عمل يُعمل في أمثاله، فمنه قولهم: دَرَسَت الريحُ رسمَ الدار إذا عفته وأبلته، فهو دارس، يقال منزل دارس، والطريق الدارس العافي الذي لا يتبين وثوْب دارس خَلَقٌ، وقالوا: دَرَس الكتاب إذا قرأه بتمهّل لحفظه، أو للتدبّر، وفي الحديث: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة»** إلخ رواه الترمذي فعطَفَ التدارس على القراءة فعُلم أنّ الدراسة أخصّ من القراءة وسموا بيت قراءة اليهود مِدْرَاساً كما في الحديث: إنّ النبي ﷺ خرج في طائفة من أصحابه حتى أتى مدراس اليهود فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلخ ومادة درس تستلزم التمكن من المفعول فلذلك صار درس الكتاب مجازاً في فهمه وإتقانه ولذلك عطف في هذه الآية:**{وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ}** على**{بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ}**

وفي قولـه:**{وَلاَ يَأْمُرَكُمْ}** التفات من الغيبة إلى الخطاب

وقرأ الجمهور "يـأمُرُكم» بـالرفع على ابتداء الكلام، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي، فإنه لما وقع بعد فعل منفي، ثم انتقض نفيه بلكن، احتيج إلى إعادة حرف النفي، والمعنى على هذه القراءة واضح: أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا إلخ ولا هو يـأمُرهم أن يتخـذوا الملائكـة أربابـاً وقـرأه ابـن عـامر، وحمـزة ويعقـوب، وخلـف: بالنصب عطفاً على أن يقولَ ولا زائدة لتأكيد النفي الذي في قولـه:**{مَا كَانَ لِبَشَرٍ}**، وليست معمولة لأنْ: لاقتضاء ذلك أن يصير المعنى: لا ينبغي لبشر أوتـي الكتـاب ألاّ يـأمركم أن تتخـذوا، والمقصـود عكس هـذا المعنـى، إذ المقصـود أنـه لا ينبغـي لــه أن يـأمر، فلـذلك اضطرّ في تخريج هذه القراءة إلى جعل لا زائدة لتأكيد النفي وليست لنفي جديد

قال ابن عرفة: "إن قيل نفي الأمر أعم من النهي فهلا قيل ويَنهاكم والجواب أنّ ذلك باعتبار دعواهم وتقوّلهم على الرسل» وأقول: لعلّ التعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله:**{ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ}** لأنهم زعموا أنّ المسيح قال: إنه ابنُ الله فلما نفي أنه يقول ذلك نفي ما هو مثله وهو أن يأمرُهم باتخاذ الملائكة أرباباً، أو لأنهم لما كانوا يدّعون التمسك بالدين كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه، أو لأنّ المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر، إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدينة فاقتصر، في الردّ على الأمة، على أنّ أنبياءهم لم يَأمروهم به ولذلك عقب بالاستفهام الإنكاري، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله:**{أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}**

فهناك سببان لإنكار أن يكونَ ما هم عليه مُرضياً أنبياءهم؛ فإنه كفر، وهم لا يرضون بالكفر فما كان من حقّ من يتبعونهم التلبُّس بالكفر بعد أن خرجوا منه

والخطاب في قوله:**{وَلاَ يَأْمُرَكُمْ}** التفات من طريقة الغيبة في قوله:**{ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ}** فالمواجَه بالخطاب هم الذين زعموا أنّ عيسى قال لهم: كونوا عباداً لي من دون الله

فمعنى:**{أَنتُم مُّسْلِمُونَ}** يقتضي أنّهم كانوا مسلمين والخطاب للنصارى وليس دينهم يطلق عليه أنه إسلام فقيل: أريد بالإسلام الإيمان أي غير مشركين بقرينة قوله:**{بِالْكُفْرِ}**

وقيل: الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قوله:**{إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}** لأنّ اليهود والنصارى لم يوصفوا بأنهم مسلمون في القرآن، فهذا الذي جرّأ من قالوا: إنّ الآية نزلت لقول رجل لرسول الله ﷺ : "ألا نسجد لك" ؟، ولا أراه لو كان صحيحاً أن تكون الآية قاصدة إياه؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: ثم يأمر الناس بالسجود إليه، ولما عرّج على الأمر بأن يكونوا عباداً له من دون الله ولا بأن يتّخذوا الملائكة والنبيين أرباباً [1]

* * * * *

(١) تفسير ابن عاشور: ٥٩ / ٦٠.

المطلب التاسع:

الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف

{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ له مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(١)

المخاطب بفعل قل: هو النبي ﷺ ليقول ذلك بمسمع من الناس: مسلمهم، وكافرهم، ولذلك جاء في هذه الآية قوله:**{وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}** أي أنزل عليّ لتبليغكم فجعل إنزاله على الرسول والأمة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل، وعدّى فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أنّ الإنزال يقتضي علوّاً فوصول الشيء المنزَل وصول استعلاء وعدّي في آية سورة البقرة بحرف (إلى) باعتبار أنّ الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدّى بحرف (إلى) والجملة اعتراض واستئناف: لتلقين النبي عليه السلام والمسلمين كلاماً جامعاً لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويعلن به للأمم، نشأ عن قوله:**{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}** (٢)

ومعنى:**{لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ}** أننا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حبّ نبينا على كراهتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى، وحذف المعطوف وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة وهذه الآية شعار الإسلام وقد قال الله تعالى:**{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}**(٣) وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران

عطف على جملة**{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}** وما بينهما اعتراض، كما علمت، وهذا تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقولهم: نحن على ملة إبراهيم، فنحن ناجون على كلّ حال والمعنى من يبتغ غير الإسلام بعد مجيء الإسلام

استئناف ابتدائي يناسب ما سبقه من التنويه بشرف الإسلام

(١) آل عمران: ٨٤ - ٨٩.
(٢) آل عمران: ٨٣.
(٣) آل عمران: ١١٩.

(وكيف) استفهام إنكاري والمقصود إنكار أن تحصل لهم هداية خاصة وهي إما الهداية الناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به، وإسنادها إلى الله ظاهر؛ وإما الهداية الناشئة عن إعمال الأدلة والاستنتاج منها، وإسنادُها إلى الله لأنّه موجد الأسباب ومسبّباتها ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في الاستبعاد، فإنهم آمنوا وعلموا ما في كتب الله، ثمّ كفروا بعد ذلك بأنبيائهم، إذ عبدَ اليهود الأصنام غير مرة، وعبد النصارى المسِيح، وقد شهدوا أنّ محمداً صادق لقيام دلائل الصدق، ثم كابروا، وشككوا الناس وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال، وإنما تسري الهداية لمن أنصف وتهيّأ لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا أنفسهم وقيل: نزلت في اليهود خاصّة وقيل: نزلت في جماعة من العرب أسلموا ثم كفروا ولحقوا بقريش ثم ندموا فراسلوا قومهم من المسلمين يسألونهم: هل من توبة ؟ فنزلت، ومِنهم الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطُعيمة بن أُبَيْرِق

وقوله:**{وَشَهِدُوا}** عطف على**{إِيمَانِهِمْ}** أي وشهادتهم، لأنّ الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق يحسن عطفه على الفعل وعطفُ الفعل عليه

الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما يَرد بعد اسم الإشارة من الحُكم عليهم وتقدم معنى**{لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** في سورة البقرة (١٦١) وتقدم أيضاً معنى**{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا}** في سورة البقرة (١٦٠)، ومعنى فإن الله غفور رحيم، الكناية عن المغفرة لهم قيل: نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري من بني عمرو بن عوف الذي ارتدّ ولحق بقريش وقيل بنصارى الشام، ثم كتب إلى قومه ليسألهم هل من توبة، فسألوا رسول الله فنزلت هذه الآية فأسلم ورجع إلى المدينة وقوله:**{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنه غفور رحيم(١)

وقوله - تعالى:**{لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ}** بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسخ فى قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هاديهم ومرشدهم محمد ﷺ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم - سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وإذا وجد تفاضل أو اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون فى أمور أخرى

(١) تفسير ابن عاشور: ٦٠.

سوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق وقد جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة للرسالات، وجامعة لكل ما فيها من محاسن فوجب الإيمان بها، وإلا كان الكفر بها كفراً بجميع الرسالات السابقة عليها وقوله:**{وَنَحْنُ له مُسْلِمُونَ}** يفيد الحصر، نحن له وحده أسلمنا وجوهنا، وأخلصنا عبادتنا لا لغيره كائنا من كان هذا الغير وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين

ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب دينا سوى دين الإسلام فهو خاسر فقال - تعالى:**{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}**

أى: ومن يطلب دينا سوى دين الإسلام الذى أتى به - عليه الصلاة والسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام، لأن دين الإسلام الذى جاء به محمد، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده قال - تعالى:**{اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً}** ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات، وجمع فيه محاسنها

أما عاقبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه - بقوله:**{وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ}**

أى وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله، واستحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال

وفى الحديث الشريف: **«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»** أى مردود عليه، وغير مقبول منه

وفى الإخبار بالخسران عن الذى يبتغى أى يطلب دينا سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع دينا سوى دين الإسلام يكون أشد خسرانا، وأسوأ حالا، لأن الطلب أقل شرا من الاتباع الفعلى

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا ما فسد منهم، استمع إلى القرآن وهو يصور هذا المعنى

بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:{كَيْفَ يَهْدِي}

روى المفسرون روايات فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال: إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا لى رسول الله ﷺ : هل لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم(١)

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله - ما علمت - لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله - عز وجل - لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصرى أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت النبى ﷺ فى كتابهم وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هى الرواية التى جاءت عن الحسن البصرى بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة ولأن القرآن قد ذكر فى غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم كانوا يستفتحون به{عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ} ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات شاملا لكل من ذكرتهم الروايات ولكل من يشابههم، إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه: وأشبه هذه الأقوال بظاهر التنزيل ما قاله الحسن، من أن هذه الآيات معنى بها أهل الكتاب على ما قال، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ فى هذه الآيات، ثم عرف عباده سنته فيهم فيكون داخلا فى ذلك كل من كان مؤمنا

(١) سنن النسائى: ٤٠٠٠.

بمحمد ﷺ قبل أن يبعث ثم كفى به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده ﷺ ثم ارتد وهو حى عن إسلامه، فيكون معينا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله(١)

والاستفهام فى قوله - تعالى:**{كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}** للنفى ولاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضلال، مع علمهم بالحق، وإيمانهم به لفترة من الوقت

والمعنى: أن الله - تعالى - جرت سنته فى خلقه ألا يهدى إلى الصراط المستقيم، قوما**{كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}** أى ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وبعد أن**{شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ}** وهو محمد ﷺ " حق " وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه، وبعد أن**{جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ}** أى البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما يدعيه، من قرآن كريم عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، ومن معجزات باهرة دالة على صدقه ﷺ

فأنت ترى أن حالهم التى أوجبت هذا النفى والاستبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين، وكانوا يشهدون بأن الرسول حق، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم وشهادتهم، ومع كل ذلك استحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان، واستولى عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم ويتوبوا عن غيهم، ويصلحوا ما أفسدوه، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم

قال صاحب الكشاف: " قوله:**{كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً}** أى كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءته الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات (٢)

فإن قلت: علام عطف قوله:**{وَشَهِدُوا}**؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل، لأن معناه بعد أن آمنوا ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار

(١) ابن جرير ٦١/١.
(٢) تفسير الكشاف: ٦٠.

"قد" بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق "

وقولـه - تعالى:**{وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ}** جملة حالية أو معترضة

والمعنى: أنه - سبحانه - قد مضت سنته فى خلقه أنه لا يهدى إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان، عن تعمد وإصرار، ووضعوا الشيء فى غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم

وفى تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم، إشعار بأنهم قد ظلموا أنفسهم بإيقاعها فى مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذى شهدوا له بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به، وظلموا الحقائق والبراهين التى نطقت بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمور إدراكا سليما، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: **«اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة»**

ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال:**{أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}**

قال الراغب: اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله - تعالى - فى الآخرة عقوبة وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره "

والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة**{جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ}** أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب استحبابهم الكفر على الإيمان**{وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم، ودعاؤهم عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله

وقولـه:**{أُوْلَئِكَ}** مبتدأ وقولـه:**{جَزَاؤُهُمْ}** مبتدأ ثان، وقولـه:**{أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله}** إلخ خبر المبتدأ الثانى، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم، صادرة من الله وهى أشد ألوان اللعن، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل: لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم فى كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه: منها أنهم فى الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال - تعالى:**{كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا}** فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد حصل للكفار من الكفار ومنها كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال:**{أَجْمَعِينَ}** ومنها وهو الأصح عندى: أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد فى نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر، فإذا لعن الكافر وكان هو فى علم الله كافرا فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك [1]"

ثم أكد - سبحانه - تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما داموا على تلك الحالة الشنيعة فقال - تعالى:**{خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب}** بسبب إصرارهم على الكفر فى الدنيا، وانغماسهم فيما يغضب الله**{وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}** أى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال أو التأخير بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرور وآثام

ولكن القرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن يتوب، وينهى الناس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصلحوا فيقول - بعد تلك الحملة المرعبة التي شنها على الكفر والكافرين:**{إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**

أى: أن اللعنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وهم خالدون فى العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر الذى ارتكبوه، وعن الظلم الذى اقترفوه، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق، وحافظوا على أداء الأعمال الصالحة " فإن الله - تعالى - غفور رحيم " أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف منهم من كفر وظلم

ففى هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن كفرهم وللمذنبين بأن يثوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم، فإنه - سبحانه - يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة، فهو القائل:**{قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ له}** أما الذين لا يتوبون

(١) تفسير الفخر الرازى: ٦١.

ولا يستغفرون ولا يثوبون إلى رشدهم بل يصرون على الكفر فيزدادون كفراً والذين يرتكسون فى كفرهم وضلالهم حتى تفلت منهم الفرصة، وينتهى أمد الاختبار، ويأتى دور الجزاء، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة

* * * * *

المطلب العاشر:
أصناف الكفار

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (١)

صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر فقال - تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ}**

أى استمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال فكأن الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاث أصناف من الكافرين: قسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته وهذا القسم هو الذى استثناه الله بقوله:**{إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** وقسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة، فلم يقبلها الله - تعالى - منه

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة:**{إِنَّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولئك هُمُ الضآلون}**

وقسم كان كافراً واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله:**{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ}**

أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا منه وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله:**{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ}**

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه لن يقبل الله - تعالى - من

(١) آل عمران: ٩٠، ٩١.

أحدهم ما كان قد أنفقه فى الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهبا، لأن كفره قد أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى:**{وَقَدِمْنَآ إِلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً}**[1] وكذلك لن يقبل الله - تعالى - عن أحدهم فدية عن عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر ولو كان ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهباً، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب

قال ابن كثير: قوله - تعالى:**{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ}**

أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف، ويفك العانى، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: **«لا، إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»** [2] وكذلك لو افتدى - نفسه فى الآخرة - بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال - تعالى:**{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ}** وقال - تعالى:**{إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** ثم قال: عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: **«يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله له: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك»** [3]

وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : **«يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب، خير منزل فيقول الله – تعالى – له: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات – لما يرى من فضل الشهادة – ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب! شر منزل، فيقول له: أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهبا؟ فيقول أى رب! نعم فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار»** [4]

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) صحيح مسلم: ٣١٥ الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل.
(٣) مسند أحمد: ١١٨٤١.
(٤) مسند أحمد: ١١٨٩٢.

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: فلم قيل فى الآية السابقة:{لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} بغير فاء وقيل هنا:{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم} بوجود الفاء ؟ قلت: قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذى جاءنى له درهم، لم تجعل المجيء سببا فى استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم "

وقوله:{ذَهَباً} منصوب على أنه تمييز وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء وأعزها على النفس

وقوله:{وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} جملة حالية، والواو للحال أى لا يقبل من الذى مات على كفره هذا الفداء ولو فى حال افتراض تحقق هذا الفداء فى يده وتقديمه إياه لكى يدفعه لخالقه وينجو من العقوبة التى توعده بها

أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره، حتى ولو فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا وحتى لو فرضنا أنه ملك هذا المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من العذاب، فإن كل ذلك غير مقبول منه، ولا بد من نزول العذاب به

والحالة المذكورة وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العذاب، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه "

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:{أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ}

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم، وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم، أو تخفيف وقعه عليهم

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب، وأقسى أنواع العقاب، حتى يقلعوا عن كفرهم، ويثوبوا إلى رشدهم

* * * * *